﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

[مريم: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الـفـرجُ بعد الشّدّةِ طمأنةٌ للفؤاد وتطييبٌ للنّفس

بيّن النّظمُ الجليل في الآية السّابقة أنّ مريم عليها السلام لمّا ألجأها المخاضُ إلى أن تستند على جِذع النّخلة، وقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾؛ جاءت هذه الآيةُ لتُبيّن أنّ الغلام – وهو عيسى عليه السلام – قد ناداها وكان أسفلَ منها عندما وضعته، مُطَمئِنًا إيّاها بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ يا أمّاه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَرِيًّا﴾: (سرى) السَّرْوُ: المُروءَةُ والشَّرَفُ، وسَرَوَ يَسْرو سَراوَةً وسَرْوًا، أي: صارَ سَرِيًّا؛ وسَرِيَ – بالكَسْرِ، يَسْرَى سَرًى وسَراءً وسَرْوًا: إذا شَرُفَ[2]، وسَراةُ كلّ شيء: أعلاه، ومنه: سَراةُ النّهار، أي: ارتفاعُه، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي: نَهْرًا يسري، وقيل: بل ذلك مِنَ السّرو، أي: الرّفعة، يقال، رجل سَرْوٌ، ويقال: سَرَوْتُ الثّوبَ عنّي، أي: نزعتُه، وسَرَوْتُ الجُلَّ عنِ الفَرَس، وقيل: ومنه رجلٌ سَرِيٌّ، كأنه سَرَى ثوبُه بخلاف المُتَدَثّر[3]، والمُراد به في الآية: النّهرُ الصّغير، كان ساقيةً للماء قبلَ ذلك، ثمّ انقطع الماءُ منه، فأرسل اللّهُ الماءَ فيه لمريم، فأشار لها إلى الجدول، وقد كان قربَ جِذْع النّخلة، وهذا قولُ الجمهور مِن أئمّة

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 30.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سرا).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرى).

التّفسير[1]، وذكر بعضُ الأئمّة أنّه بمعنى: السّيّدِ النّبيل، والرّجلِ العظيم الخصال[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر النّظمُ الجليل في هذه الآية أنّ جبريل عليه السلام حينَ سمع جَزَعَها، ناداها مِن مكانٍ أسفلَ منها تحتَ الأَكَمَة، قائلًا: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أو كان المُنادي الغلامَ الوليدَ، فقد أنطقَه اللّهُ حين وضعتْهُ؛ تطييبًا لقلبها، وإزالةً للوَحْدة عنها، حتّى تشاهدَ بادئَ ذي بدءٍ عُلوَّ شأنِ ذلك المولود الذي بشّرها جبريل به، بأن لا تحزني يا مريم بولادة عيسى وبمكان القَحْط، أو لا تحزني يا أمّي، فإنّ ربّكِ المُحسنَ إليك قد جعل في مكانٍ أسفلَ منكِ، أو قريبٍ منكِ، أو تحتَ ذيلِكِ نهرًا صغيرًا، أو غُلامًا رفيعَ الشّأنِ، ساميَ القدرِ، ذا سخاءٍ في مُروءةٍ[3].

ندواؤها تطييبٌ لقلبها، وإزالةٌ للوَحْشَة عنها

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾ معطوفةٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[4]، وقد عطف بالفاء للدّلالة على ترتّب مقالته على مقالتها، وأنّه قد أجابها مِن فور ما قالت وأبدَت مِن حُزْنٍ وتَمَنٍّ للموت، فجاء النّداءُ لطَمأنتِها على الفور، رحمةً بها، وتطييبًا لقلبها.

المبادرةُ بالتّسريّة والتّثبيت على الفؤاد

دلالةُ التّعبيرِ بالنّداء:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ النّداء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن

رفعُ الصّوت بمقالة التّطمين أدْعَى لتثبيت الفؤاد

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 225 - 226، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 332.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 91.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 109 - 110.

(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 287.

﴿تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ دون القول؛ للدّلالة على أنّه رفعَ صوتَه بتلك المقالةِ مناديًا لها في تلك السّاعة، وهذا النّداء فيه ما فيه مِن إدخال الطُّمأنينةِ والسّكينة على قلبها، أي: فناداها ابنُها عيسى الذي كان أسفلَ منها عندما وضعته، مطمئنًا إيّاها بعد أن قالت: يا ليتَني مِتُّ قبلَ هذا الذي حَدَثَ لي، ناداها بقوله: ألّا تَحْزَني يا أمّاه، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1]، وإنّما رفعَ الصّوتَ بتلك المقالةِ دون أن يكون ذلك بالإلهام أو الإلقاء في الرَّوع؛ لأنّ إظهار الصّوت في تلك الحالة له مِنَ الوقع عليها ما يناسب شِدّة موقفِها، ولأنّ النّداء آيةٌ لها وأمارةٌ على أنّه مِنَ الأُمور الخارقةِ للعادة، التي للّه فيها حِكمة، ولا سيما إن كان المرادُ بالمُنادي عيسى عليه السلام وليدَها وقُرّةَ عينِها، فبِه يتبيّنُ عُذْرُ مريمَ عليها السلام، ولا ينبغي أن يطعن في شرفها بعد ذلك[2].

دلالةُ تعدّدِ القراءات في: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾:

قرأ المدنيان وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَفُ وروحٌ بكسر الميم وخفض التاء ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾، وقرأ الباقون بفتح الميم وفتح التّاء ﴿مَن تَحْتَهَا﴾[3].

فمَن قرأ بكسر ميم ﴿مِن﴾ وجَرّ ﴿تَحْتِهَآ﴾ يرى أنّ قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ فيه ضميرُ الغلام، وهو عيسى عليه السلام؛ أي: ناداها الغلامُ الزّكيّ مِن تحتِها، فـ ﴿مِن﴾ جارّة، و﴿تَحْتِهَآ﴾ مجرورة بها، وهو اسمٌ غير ظرف، وقيل: المنادي جبريلُ عليه السلام، ويكون معنى: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ من دونها.

وعلى القراءة الأُخرى ﴿مَن تَحْتَهَا﴾ يكون المعنى: الذي تحتَها، وهو عيسى عليه السلام، والتّقدير: (مَن حصل تحتها)، وانتصابُ ﴿تَحْتَهَا﴾ لأنّه ظَرف، والعامل فيه معنى الفعل مِنَ الحصول أو الاستقرار[4].

سِرُّ التّعبير بـ: ﴿تَحْتِهَآ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف ﴿تَحْتِهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 30.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 9/ 450.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 357.
(4) ابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات: 2/ 815.

جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فقيّد كونَه ﴿تَحْتَهَآ﴾، وأنّ النّداء صادرٌ من تلك الجهة "لإفادة أنّه ناداها عند وضعِه قبلَ أن تَرْفَعَه؛ مبادرةً للتّسليَة والبِشارة، وتصويرًا لتلك الحالة التي هي حالةُ تمامِ اتّصالِ الصّبيّ بأُمّه"[1]، فصار تحتَها لأنّه انفصل عنها بالولادة.

حصل النداء بمجرد وضع مولودها عليه السلام

دلالةُ التّعبير بالحُزن دونَ الخَوف:

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالحُزن دونَ الخوفِ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ دون أن يقول: (لا تخافي)؛ لأنّ الحُزْنَ أنسبُ لحال مريم عليها السلام؛ لأنّ الحُزن يَدُلّ على خشونةٍ في الأرض وخشونةٍ في النّفس، لما يحصل فيها مِنَ الغَمّ، ويضادُّه الفَرحُ[2]، وهي كانت في هَمّ وغَمّ، وهذا أنسبُ أن يُعبّر عنه بالحُزن لا بالخوف؛ لأنّها كانت تحزن أن تُشْتَمَ وتُقْذَفَ به، أو أنّها حَزِنت خوفًا على نفسها وعلى ولدها الهلاكَ؛ فبُشِّرَت بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[3].

الهَمُّ والغَمُّ الذي اعترى قلبَها حُزنٌ لا خَوف

سِرُّ التّعبير بـ ﴿قَدْ﴾ مع الفعل الماضي ﴿جَعَلَ﴾:

أدخل النّظمُ الجليل حرفَ التّحقيق ﴿قَدْ﴾ على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ تأكيدًا لمضمون الجملة التي سيقت لتسلية مريم عليها السلام، والتّأكيد ليس لرَدّ الإنكار، بل لتقويَة الإخبار؛ لأنّها لم تكن منكرةً لما أخبرها به، وفيه تأكيدٌ لعِلّة النّهي عنِ الحُزن[4].

التّأكيد على الإكرام أشدّ تثبيتًا للفؤاد

سِرُّ التّعبير بالرّبوبيّة والإضافة إلى الضّمير:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ تذكيرًا له بسابق الإنعام، أي: إنّ ربّكِ المحسنَ إليك هو

غايةُ التّشريفِ أن يُضاف المَرء إلى مولاه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 87.
(2) الرّاغب، المفردات: (حزن).
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 230.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.

الذي جعل تحتَكِ ذلك النّهرَ تفضّلًا منه، وموافقةً لسياق السورة في مقام الإنعام، لأنّها مبنيّةٌ على تَعَدّد آثارِ الرّحمة، أخذًا مِن تَكْرار لفظِ الرّحمن في هذه السّورة، وفي إضافته إلى ضميرها تشريفٌ لها، وتأكيدٌ للتّعليل، وتكميلٌ للتّسلية، التي سيقت الجملةُ لأجلها[1].

دلالةُ تقديمِ الظّرف (تحت) على المفعول:

تخصيص مريم عليها السلام بموطن الإنعام

قدّم النّظم الجليل الظّرف (تحت) على المفعول به في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ لأنّ الأهم كون هذا السّريّ قريبًا منها منخفضًا عنها، فكان تقديم ذكر ذلك في السّياق أبلغَ وأكثرَ مناسبةً، كما أنّ فيه محافظةً على الفاصلة التي لها اعتبارٌ مكينٌ في بنية السّورة، ولا يناسب الكلام البليغ أن يكسر النّسق الصّوتي لغير غايةٍ وغرضٍ بيّن.

سِرُّ التّعبير بـ (تحت):

من بلاغة القرآن اختيارُ اللّفظ المُلائم للمعنى

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (تحت) دون (أسفل) في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ لأنّ (تحت) أنسبُ للسّياق، فهما وإن كانا يشتركان في الإشارة إلى ناحية الانخفاض في الاستعمال القرآنيّ، غيرَ أنّ (تحت) تُستعمَل في التّعبير عنِ المنفصل، أو ما يمكن انفصالُه، وأمّا (أسفل) فتُستعمَل في التّعبير عنِ المُتّصل بعضِه ببعض[2]، فكان إيثارُ (تحت) لأنّ الانفصالَ واقعٌ بين مريم عليها السلام وبينَ السّريّ، والغلامِ أو جبريلَ عليه السلام، ولأنّ التّعبير بلفظ (أسفل) يحمل معنى التّنقُّص، وهذا المعنى غيرُ مُرادٍ هنا.

دلالةُ الإضافة في: ﴿تَحْتَكِ﴾:

إبرازُ كمالِ النّعمةِ وخصوصيّتِها

أضاف النّظمُ الجليل الظّرفَ (تحت) إلى ضمير مريمَ عليها السلام في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 262.
(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 158.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: للدّلالة على قُرْبِه منها، فهو في ناحية التّحتيّة المُلاصقة لها، فهو ليس تحتًا مطلقًا، بل تحتَها هي، إشارةً إلى قُربِه منها، وهذا القُربُ مناسبٌ لحالتها، فليس وجودُ النّهرِ نعمةً كافيةً لها، بل قُرْبُه منها، ودُنوّه منها - بحيثُ إنّها متمكّنةٌ منه تمكّنَ الأعلى مِنَ الأدنى - هو النّعمةُ التّامّةُ.

سِرُّ التّعبير بقوله: ﴿سَرِيًّا﴾:

خـصـوصـيّـة جريانِ الماء لمريم عليها السلام

آثَرَ النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (السّريّ) دون (النّهر) في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ للدّلالة على صِغَره وكونِ الماء يسري فيه؛ فالنّهر "يُسَمّى سَريًّا؛ لأنّ الماء يسري فيه"[1]، وقد آثَرَ التّعبيرَ بهذا اللّفظِ إشارةً إلى صفة السّير؛ لأنّه قد كان ساقيةً للماء قبلَ ذلك، ثمّ انقطع الماءُ منه، فأرسل اللّهُ الماءَ فيه لمريم[2]، وهذا يناسب جريَ الماءِ فيه، فسمّاه سَريًّا باعتبار أنّ الماء قد جرى فيه بعد أن لم يكن فيه ماء؛ إكرامًا لمريم عليها السلام، وتثبيتًا لفؤادها، وربطًا على قلبها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّداء والدّعاء:

النّـداء مختصّ برفع الصّـوت، والـدّعـاء برفع الصّوت وخفضه وبالسّر

"النّداء هوَ رفع الصَّوْت بما لَهُ معنًى، والعربيّ يَقول لصاحبه: نادِ معي ليَكونَ ذَلِك أندى لصوتنا، أَي: أبعدَ لَهُ، والدُّعاءُ يكون برَفْع الصَّوْت وخفضِه، يُقال: دَعوتُه مِن بعيد، ودعوتُ اللّهَ في نَفسي، ولا يُقال: ناديتُه في نَفسي، وأصلُ الدُّعاء طلبُ الفِعْل"[3]، فآثَرَ في الآية الكريمة التّعبيرَ بالنّداء تعبيرًا عن أنّه رفعَ صوتَه في خطابها بذلك، فهو لم يَدْعُها، بل رفعَ صوتَه، ليُسْمِعَها وتنتبهَ لما يقول.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 94.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 225 - 226، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 11.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38.

النّهر والسّري:

ما صَغُر مِنَ الأنهار فهو سَريٌّ

السّريُّ: هو الصّغير مِنَ الأنهار، وقد كان ساقيةً للماء قبل ذلك، ثمّ انقطع الماءُ منه، فأرسل اللّهُ الماءَ فيه لمريمَ، فأشار لها إلى الجَدول، وقد كان قُرْبَ جِذع النّخلةِ، وهذا قول جمهور المُفسّرين[1]، وهذا يناسبُ جريَ الماءِ فيه، فسمّاه سَريًّا باعتبار أنّ الماء قد جرى فيه، "والنّهر يُسَمّى سَريًّا لأنّ الماء يَسْري فيه"[2].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 225 - 226.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 94.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»